حول علم الترسيين (١)

معجزة البيان في نشأة الإنسان

كيف نشأت اللغة في المجتمع البشري؟

الأستاذ خليل عبدالله

المقدمة :

حادثة البيان عند الانسان من الحوادث الغامضة، والمثيرة جدا ، وهي ايضا مغرقة بالتعقيد . لا يكاد انسان اليوم يجد لها جوابا مقنعا .. حيث انها تتعلق بتاريخه الغامض . بعض الشيء ؛ كما يدور حولها تكهنات عديدة ، ويطرح على بساطها عدة اسئلة . هي :

اولا — كيف نطق الانسان الاول وابان عن مدركاته ؟..

ثانيا — بأية لغة نطق ؟ ..

ثالثا — هل كان لديه ذخيرة من الالفاظ اطلقها على افراد بيئته بمقتضى الحال ام انه تناول الفاظه من تلك البيئة ؟؟ ..

رابعا — هل كانت تلك اللغة الاولى التي دوت الفاظها على البسيطة هي ام اللغات . واصلها الاصيل؟. أم ان لكل لغة نبعا مستقلا ؟..

الجواب عن هذه الاسئلة واشالها . يحتاج الى جهد كبير لكي يوفيها الباحث حقها . ولانها مغرقة في الابهام . عميقة عمق التاريخ . ولابد لمن اراد ان يتحدث عنها من تقصي كل ما قيل عن الانسان الاول. سواء من طريق نقلي او من طريق عقلي . او من طريق علمي ... وبعد استحضار الطرق واستقراء الادلة ؛ يبقى الراجح منها لبعض عناصر هذا البحث قائما على الاحتمال .

اذن لابد لنا من دراسة ما قاله التاريخ القديم . وما جاءت الكتب السماوية حول هذا الموضوع . كما لابد لنا من ان نحقق فيما وصل اليه علماء اليوم سواء في الجيولوجيا او في الفلك او في النفس او في الحياة والحيوان والنبات او في الفيزيولوجيا والذرة . وما شابه ذلك .. ثم نخرج بنظرية او اكثر حول هذا البحث لعل فيها نفعا للباحثين .. ومتعة للمتفكهين .

النظرة الحيوانية :

لقد درجت اغلب علوم العصر وعلمائه في مختلف المجالات الطبيعية والحياتية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والكونية وغيرها كثير .. على تبني مبدا التطور . والبناء على اساس مذهب التطوريين .. فما هذا المذهب ؟ .. وماذا يقول ؟ .. وما هي نسبة الصواب فيما يقول ؟ ..

يعود هذا المذهب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما اصدر ، دارون — (Darwin كتابه المسمى ، اصل الانواع — سنة 1859 ، ومن ثم كتابه الثاني ، اصل الانسان — سنة 1871 ، . ومن ذلك الزمن تغيرت نظرة الانسان الى نفسه . والى

كونه والى تاريخه .. حيث دوت نظرية دارون معلنة ان الحياة قد تطورت من الخلية الواحدة الى الانسان المعقد .. وهذا الانسان قد تطور من حيوان سابق الى حيوان يشبه الانسان (القرد) الى انسان يشبه الحيوان (الحلقة المفقودة) .. الى الانسان .

ولقد حطمت هذه النظرية كل ثبات فى نظر العلماء والعامة وساعدها عدة عوامل قوية فى ميادين السياسة والحضارة والمعتقدات — لا مجال الى شرحها هنا — وتلقاها الجميع بذهول ثم بكل ترحيب . وحملها العامة والخاصة . العلماء والسوقة . بكل نشوة وعصبية فترة من الزمان ، بدون اعمال العقل وتحكيم الضمير.. وكان الزمان كفيلا باخماد هذه الثورة فى النفوس .. ورجع هؤلاء الناس الى عقولهم . وتناولوا النظرية من جديد ، بحثا وتدقيقا .. فكان منهم من ردها نهائيا. ومنهم من عدل فيها . ومنهم من بقي ينفخ فى رؤوس الناس لقبولها . مستهدفا بعض الغايات .. — او بالاحرى نفس الغايات التي وجدت النظرية بسببها — .

العالم الداروينى الحديث — جوليان هكسلي — يؤمن بالتطور كاستاذه دارون ولكن يخالفه بحيوانية الانسان . ويعتقد ان الانسان متفرد بيولوجيا وسيكولوجيا ويتطور على قاعدته الانسانية الخاصة لا على القاعدة الحيوانية . كما يرفع هكسلي عن الانسان صفة المادية البحت ، ويلفت النظر الى عمل الفطرة الخلاقة فى نفس الانسان (بيولوجيا) وان له خصائص لم تلاحظ فى أي حيوان . ولهذه الخصائص آثار متفردة.

ولنستمع اليه يقول فى كتابه (الانسان فى العالم الحديث) — ترجمة حسن خطاب — « لقد تارجح الانسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات . بين اعجابه الشديد او القليل بنفسه . يفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا ، وحينا آخر هوة صغيرة جدا . »

« وبظهور نظرية دارون بدا الخطار (البندول) يتارجح عكسيا ، واعتبر الانسان حيوانا مرة اخرى.. ووصل الخطار شيئا فشيئا الى اقصى مدى تارجحه ، وظهر ما بدا انه النتائج المنطقية لفروض دارون . فالانسان كغيره من الحيوانات . ولذلك فان آراءه فى معنى الحياة الانسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا اكثر من آراء الدودة الشريطية او بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية . ومن المسلم به ان الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة او الفار » .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان ، نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية فى الانسان.. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه فى الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي»

« ان الخطار يتارجح ثانية : وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة اخرى .. وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا (1) ولكنه بدا يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفى حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد .. وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالي ...

« وأول خصائص الانسان الفذة ، واعظمها وضوحا . قدرته على التفكير التصوري — التخيل — ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية فى الانسان نتائج كثيرة .. وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة — المتراكمة من رصيد التجارب الانسانية — ومن اهم نتائج تزايد التقاليد — او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية — ما يقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات .. وان العدد والتقاليد لهي الخواص التي هيات للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية ... وهذه السيادة « البيولوجية » — فى الوقت الحاضر — خاصية اخرى من خواص الانسان الفذة » (ص 5/3)

وهكذا يضع علم الحياة — الانسان — فى مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات .. كما تقول الاديان .. (2) » .

« ولقد ادى الكلام والتقاليد والعدد الى كثير من خواص الانسان الاخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الاخرى ، ومعظمها واضح معروف » .

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر . اذا انقسمت كل الانواع الاخرى المسيطرة الى مئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى أجناس

وفصائل عديدة ومجموعات اكبر . اما الانسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الانسان في حدود نوع واحد .

« واخيرا فان الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

« وللانسان خاصية اخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الانسان في تطوره . واما خاصية الانسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي « التفكير المعنوي ».

ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الانسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود اليها ، ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الاسهاب .فاولا يجب الا يعزب عن بالنا ، ان الفرق بين الانسان والحيوان في العقل اعظم بكثير مما نظن عادة .. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . وليست الثدييات بافضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الانسان اهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطا . ولابد ان يكون سلوك الحيوانات مرنيا — اي انه ثابت في حدود ضيقة — اما الانسان فقد اصبح في سلوكه حرا نسبيا .. حرا في الاخذ والعطاء على حد سواء .. ولهذه الزيادة في المرونة نتائج اخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والانسان ايضا مريد في بعضها . فقد ادت هذه المرونة مثلا الى كون الانسان الكائن الحي الوحيد ، الذي لابد له ان يتعرض الى الصراع النفسي .. ومع ذلك فطبقا للآراء الحديثة توجد في الانسان اجهزة لتقليل النزاع الى اقصى حد ؛ وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الانسان ، والتي يمكن تسميتها — نفسية — اكثر منها — بيولوجية — تنشأ من خاصية او اكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الاولى : قدرته على التفكير العام والخاص .

الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والامة والحزب والجماعة الدينية وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها . (ص 32)

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الانسان الى مرحلة الانسان (3) وهي بلاشك مريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية والمواهب الموسيقية ، والتقدير والابداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

« ولكن لا يكفي هنا ان نحصي بعض اوجه النشاط . ففي الحقيقة ان معظم اوجه النشاط الانساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الاصلية . وكذلك فهي مفذة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الانسان نتائج ثانوية اخرى لم تستغل بعد ..

« وبذلك يكون الانسان مريدا في احواله اكثر مما نظن الآن » انتهى كلام هسكلي .

واما العالم الامريكي : « ا . كريسي موريسون » فانه يرد على نظرية (النشوء والارتقاء) ردا عليما ويستبعد بالكلية اي ارتباط بين الانسان وبين الحيوان كما انه يستنكر ان يقوم الانسان هكذا لوحده ابتداء من الخلية وعلى مبدا الصدفة ولنقرا ما كتب هذا العالم في كتابه (Man does not stand alone) الذي ترجمه الى العربية محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو الى الايمان) :

« ان القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة (الجينات) (ص 145) .

« لقد راينا ان « الجينات » متفق على كونها تنظيمات اصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء حي . وهي تتحكم تفصيلا في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل والتشعر والشعر والاجنحة لكل حيوان بما فيه الانسان » (ص 147) .

... « ويلاحظ ان جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتى ان الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك » .

« والانسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل (السيميا) — الاورنجتان والغوريلا

والشمبانزي — ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهانا على اننا من نسل اسلاف سيمائية ، من القرود ، او ان تلك القرود هي ذرية منحطة للانسان . ولا يمكن احد ان يزعم ان سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Haddock) وان يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ، ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة ... (ص 142) .

« ان ارتقاء الانسان الحيواني الى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة اعظم من ان تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتدائي .

واذا قبلت واقعية القصد ، فان الانسان بوصفه هذا قد يكون جهازا .. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لانه بدون ان يدار ، لا فائدة منه والعلم لا يعلل من يتولى ادارته . وكذلك لا يزعم انه مادي .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لان نوقن بان الله قد منح الانسان قبسا من نوره ، ولا يزال الانسان في طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه (بالروح) وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بانها خالدة .

« واذا صح هذا التعليل — ويبدو ان المنطق الذي يسنده لا يمكن دحضه — فان هذه الكرة الارضية الصغيرة التي لنا ، وربما غيرها كذلك ، تكتسب اهمية لم يحلم بها احد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هذا ، اول جهاز مادي اضيف اليه من نور الله . وهذا يرفع الانسان من مرتبة الغريزة الحيوانية الى درجة القدرة على التفكير ، التي يمكن بها الآن ان يدرك عظمة الكون في اشتباكاته ، ويشعر شعورا غامضا بعظمة الله ماثلة في خلقه . (ص 187 — 188) .

« ان اية ذرة او جزئية Atom, Molecule لم يكن لها ذكر قط ، واي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه راي ابدا . واي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعا لحوافز معينة للحياة هذه الكائنات تنتظم شيئا تطيعه جزئيات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي ؟ .. هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ اجل .. وماذا ايضا ؟ شيء غير ملموس ، اعلى كثيرا من المادة لدرجة انه يسيطر على كل شيء ومختلف جدا عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة انه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه . ان روح الانسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الاعلى لوجودها . وقد اوجدت للانسان قانونا للاخلاق لا يملكه اي حيوان آخر ، ولا يحتاج اليه . فاذا سمى احد ذلك الكيان بانه مضلة لتكوينات المادة ، لا لشيء سوى انه لا يعرف كنهه بانبوبة الاختبار ، فهو انما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان .. انه شيء موجود ، يظهر نفسه باعماله ، وبتضحياته وبسيطرته على المادة ، وبالاخص بقدرته على رفع الانسان المادي من ضعف البشر وخطئهم الى الانسجام مع ارادة الله .. هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الانسان للاتصال باشياء اعلى من نفسه . وفيها كشف عن اساس حافزه الديني .. وهذا هو الدين » .. (ص 201 — 202) .

واما عالم الحياة (الكسيس كاريل) فانه يعتبر ان الانسان حدث فذ مميز وعالم فرد ليس له مثيل على ارضنا هذه ، كما يعتبر اننا لا نعلم شيئا عن هذا الانسان المجهول المعقد ، وذلك في كتابه (الانسان ذلك المجهول) وقد عربه السيد شفيق اسعد فريد .

ولننقل الآن بعض هذه المعاني :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجماد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد وفصاحة ، باللغة الحسابية وقد انشأت هذه العلوم عالما متناسقا كتناسق آثار اليونان القديمة . انها تنسج حول هذا العالم نسيجا رائعا من الاحصاءات والنظريات .

« بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، حتى ليبدو وكان الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم في غاب متشابك الاشجار ، او انهم في قلب دغل سحري ، لا تكف اشجاره التي لا عداد لها عن تغيير اماكنها واحجامها فهم يرزحون تحت عبء اكداس من الحقائق ، التي يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم يعجزون عن تعريفها او تحديدها في معادلات جبرية . فمن الاشياء التي تراها العين في عالم الماديات، سواء كانت ذرات ام نجوما صخورا ام سحبا ، صلبا ام ماء .. امكن استخلاص خواص معينة كالثقل والابعاد الاتساعية .. وهذه المستخلصات — وليست

الحقائق العلية ـ هي مادة التفكير العلمي .. ملاحظة الاشياء تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنا ، ونعني بها الصورة الوصفية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد ان العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغيير ـ اي القوانين الطبيعية ـ تظهر فقط عندما يصبح العلم اكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء الا لانهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من انهما لا يدعيان انهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للاشياء فانهما يمداننا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل . وتقرير كيفية وقوعها طبقا لارادتنا . وبتعلمنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا انفسنا ..

« ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ـ والانسان بصفة خاصة ـ لم يصب مثل هذا التقدم.. انه لا يزال في المرحلة الوصفية .. فالانسان كل لا يتجزأ . وفي غاية التعقيد . ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له . وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه او في اجزائه ، في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي .

« ولكي نحلل انفسنا فاننا مضطرون الى الاستعانة بفنون مختلفة . والى استخدام علوم عديدة.. ومن الطبيعي ان تصل كل هذه العلوم الى راي مختلف في غايتها المشتركة . فانها تستخلص من الانسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغها فقط . وبعد ان تضاف هذه المستخلصات بعضها الى بعض . فانها تبقى اقل غناء من الحقيقة الصلبة .. انها تخلف وراءها بقية عظيمة الاهمية ، بحيث لا يمكن اهمالها

.. « اننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرفه على انه مكون من اجزاء مختلفة وحتى هذه الاجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الاشباح

تسير في وسطها حقيقة مجهولة ..

« وواقع الامر ان جهلنا مطبق . فاغلب الاسئلة التي يلقيها على انفسهم اولئك الذين يدرسون الجنس البشري **تظل بلا جواب** ، لان هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنية ، ما زالت غير معروفة . فنحن لا نعرف حتى الآن ، الاجابة عن اسئلة كثيرة مثل :

كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والاعضاء المؤقتة للخلية ؟.

كيف تقرر « الجنيس » ـ ناقلات الوراثة ـ في نواة البويضة الملقحة ، صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟؟ .

كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء انفسها مثل الانسجة والاعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي تدر لها ان تلعبه في حياة المجموع، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

« ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ اننا نعرف اننا مركب من الانسجة والاعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا . اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية .. الى اي مدى تؤثر الارادة في الجسم ؟ كيف يتاثر العقل بحالة الاعضاء ؟ على اي وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد ان تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ ، والنظم النفسية والادبية ؟ .

« اننا ما زلنا بعيدين جدا عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات والاعضاء . ووجوه النشاط العقلي والروحي .. وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكفاح ضد الامراض .

« اننا لا نعرف كيف يمكن ان يزداد الاحساس الادبي . وقوة الحكم ، والجراة .. ولا ماهي الاهمية النسبية للنشاط العقلي والادبي .. كذلك النشاط الديني

« اي شكل من اشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور او الخواطر ؟..

« لاشك مطلقا في ان عوامل فسيولوجية وعقلية هي التي تقرر السعادة او التعاسة ، النجاح او الفشل .. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل .. اننا لا نستطيع ان نهب اي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة مصنعية .

« وحتى الآن فاننا لا نعرف اي البيئات اكثر صلاحية لانشاء الرجل المتمدين وتقدمه .

« هل في الامكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟؟

« كيف نستطيع ان نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدنية العصرية ؟

وهناك اسئلة اخرى لا عداد لها ، يمكن ان تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لنا .. ولكنها ستظل جميعا بلا جواب .. فمن الواضح ان جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ، غير كاف ، وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » (ص 13 – 18) .

« ان معرفة نفوسنا لن تصل ابدا الى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد والجمال ، التي بلغها علم المادة . اذ ليس من المحتمل ان تختص العناصر التي اخرت تقدم علم الانسان .. فعلينا ان ندرك بوضوح ان علم الانسان « هو اصعب العلوم جميعا » .

« ان الفردية جوهرية في الانسان . انها ليست مجرد جانب معين من الجسم اذ انها تنفذ الى كل كياننا .. وهي تجعل « الذات » حدثا فريدا في تاريخ العالم.. انها تطبع الجسم والشعور . كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص . وان ظلت غير منظورة .. » (ص 281) انتهى كلام كاريل .

هذا نموذج مصغر من الرد العلمي للنظرية القائلة بحيوانية الانسان ، واما من وجهة النظر السياسية فللنظرية فيها ميدان لا يستهان به الخصه فيما يلي :

ان حيوانية الانسان هذه – كما يزعمون – لها اصل اصيل في احد الكتب المقدسة لدى الطوائف اليهودية .. ولكنها حيوانية تختص فقط بالاميين غير اليهود ، فاليهودي هو الانسان فقط ، وهو من نسل ابيه آدم الذي خلقه الله بيده ، واما غير اليهودي فهو من اصل حيواني قد طوره الله الى شكل الانسان لكي يكون جديرا بخدمة شعب الله المختار ، هذا وقد اختلف الحاخامات حول اصل الاميين (غير اليهود) فقال بعضهم : من نطفة حصان . وبعضهم قال من نطفة كلب وبعضهم وبعضهم .. ولكن (دارون) كان اذكى واعلم بالحيوان فوجد ان القرود هي اقرب هيكلا الى الانسان من غيرها من الحيوانات فانتشرت نظريته .

والتلمود يوحي لمن يقرأه بانه كتاب الهيمنة المنشودة لدى اليهود على سائر الجنس البشري ، ولما كان هذا الامر شاقا وعسيرا ، اصبح لابد من اقناع الاميين بنظرياته وتعاليمه .. فكان ما قرره – ظنا – دارون من طريق استقرائي ناقص نظرية البسها مسوح العلم ، واوهم بها العالم على انها يقينية لا ترد .

ولكن ما علاقة دارون باليهودية وما علاقته بحيوانية الانسان الامي التي جاءت في كتاب قديم جدا لليهود ؟؟

ان دارون كان على خط التلمودية الحديثة (الصهيونية) من حيث يدري او من حيث لا يدري ... والوثائق تشير كما اشارت الوقائع بأن دارون كان يسير بموجب ايحاءاتها .

وهذا ما قرأناه في المقررات التي اتخذتها الجمعيات الصهيونية العالمية في مؤتمر – بال – عام 1897 .

وقد جاء في البروتوكول الثاني لهذه المقررات ما يلي :

.. « ان الطبقات المتعلمة ستختال زهوا امام نفسها بعلمها . وستأخذ جزافا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه اليها وكلاؤنا – رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناه – .

« لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا ان نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشه Nietsche قد رتبناه من قبل . والاثر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الامي (غير اليهودي) سيكون واضحا لنا على التأكيد » (4).

ودارون لم يفعل شيئا سوى انه فلسف حيوانية الانسان التي وردت في التلمود في مواضع عديدة نجتزىء ببعضها في سطور :

« جاء في تلمود اورشليم ان النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان ..

« الامم الخارجة عن دين اليهود ليست كلابا فقط بل حميرا ايضا . وقال الحاخام ــ ابار بانيل ــ : ان الشعب المختار هو الذي يستحق الحياة الابدية واما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير . ولا قرابة بين اليهود وبين الامم الخارجة عن الدين اليهودي لانهم اشبه بالحمير ، وبيوت عبادة باقي الامم يعتبرها اليهود كزرائب الحيوانات وقال الحبر مناحم : ايها اليهود ، انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرها روح الله . واما باقي الامم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة .

« وكان هذا راي الحاخام ــ اريل ــ ايضا لانه كان يعتبر الخارجين عن الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات . فالخارج عن دين اليهود حيوان على وجه عام . سمه كلبا او حمارا او خنزيرا .. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان .

« وقال الحاخام ــ ابار بانيل ــ المراة غير اليهودية هي من الحيوانات وقد خلق الله الاجنبي على هيئة الانسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم ، لانه لا يناسب الاسير ان يخدمه ليلا ونهارا حيوان على صورته الحيوانية كلا . لهذا مناف للذوق والانسانية .

« فاذا مات خادم يهودي او خادمة وكانا من المسيحيين فلست ملزما بان تقدم له التعازي باعتباره فقط انسانا ، بل باعتباره فقط حيوانا من الحيوانات المسخرة » (5) .

اذن فحيوانية الانسان التي نادى بها التطوريون هذا منطلقنا .. ولابد للصهيونية التلمودية التي تبغي السيطرة على العالم من ان تثبت هذا في اذهان الناس بطريق سحري تقبله العقول الضعيفة وجماهير الناس لتنطلق بهذا المفهوم بكل حرية محطمة قيود القيم الثابتة والاخلاق السامية والرسالات القومية .. وتعيش بالتالي كالحيوانات ، تاكل وتتمتع بانواع الشهوات واللذائذ بلا رقيب ولا حسيب . وعندما تصل هذه الحيوانات ــ بالتشبه ــ الى درجة الغوغاء والضياع يسهل قيادها وتلين قناتها لارباب الصهيونية

وبعد ، فالزعم القائل بحيوانية الانسان وتطوره من الخلية الواحدة ، هو زعم فاسد ولا رصيد له من الواقع ، وقد رده العلم والعقل معا .. وعليه فهو غير جدير بان يكون اساسا لبحث ، ميزة البيان في شان الانسان ، او غيره من الابحاث العلمية الجادة الهادفة.

ونتيجة لهذا البحث العلمي يتقرر معنا الآتي .. :

1 ــ الانسان مخلوق فذ .

2 ــ حادثة وجود الانسان على الارض حادثة فذة غير مكررة .

3 ــ الانسان متميز عن الحيوان نفسيا وجسديا .

4 ــ لا تماثل بين الانسان والحيوان والشبه العضوي او الهيكلي ليس دليلا على كون احدهما من الآخر .

5 ــ الفطرة ثابتة عند الانسان منذ كانت وان تغيرت صور الدوافع فيها .

6 ــ ويمتاز بـ ، التفكير التصوري ،

7 ــ ولديه امكانيات اجتماعية واقتصادية وسياسية كامنة في فطرته منذ كان .

وهذا يعني ان الانسان وجد دون مقدمات ويتمتع بنفس الميزات التي لديه الآن ــ وان تغيرت وتطورت مظاهرها الخارجية وصورها ــ وميزة البيان من الميزات العديدة التي تميز الانسان عن الحيوان ... ولما كان هذا شان الانسان اصبح من الضروري ان يكون ناطقا مدركا ، اي مبينا ، منذ وجوده الاول لكي يعبر عن مكنونات فطرته ويبين بواسطتها عن احساساته ومدركاته ، ويحقق بموجبها غاية وجوده .

فكيف نطق الانسان الاول فهذا ما سوف نحقق فيه الى جانب تثبيت ما تنتج معنا في هذا الفصل . وذلك عند استنطاق التاريخ بما فيه من روايات مختلفة . في الفصل الثاني :

النظرة التاريخية :

لو عدنا الى اعماق التاريخ لنسأل عن الانسان وكيف كان ؟ .. فسوف نجد ضالتنا المنشودة .. وذلك بالرغم من تضارب الروايات واختلاف الاخبار .. الا اننا نلمح من خلالها خطا عريضا ينتظم الكل ، مع بعض التفرعات . كما نلمح واديا عميقا تسير في شعبه فكرة واضحة عن نشاة الانسان .

فالاخبار التي تناقلها نسابو العرب في الجزيرة العربية وغيرها تشبه الى حد كبير ما نقله المؤخون الفرس ، وهذه بالتالي قد تختلف كثيرا وخاصة في اصولها مما حكاه اهل التوراة (في العهد القديم) .. وهذه وتلك وهاتيك تكاد تكون مماثلة لاخبار الامم السابقة التي ذكرها القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية .

ولقد استطاع المؤرخون العظام في ظل الدولة الاسلامية وفي قمة العصور الذهبية للفكر والتاليف ، امثال ابن الاثير وابن جرير الطبري وابن كثير وابن عساكر وابن خلكان وابن خلدون وغيرهم كثير ... ان يجمعوا الروايات المختلفة والاخبار المتضاربة عن تاريخ البشرية ونشاة الانسان فحققوا فيها تحقيقا علميا دقيقا ووضعوا بين ايدينا الراي الراجح والخط الواضح لنشاة الانسان .

وسوف نكتفي بتتبع بعض النصوص التاريخية المأخوذة من تاريخ واحد من اوثق التواريخ . عن تاريخ الرسل والملوك (6) لمؤلفه ابي جعفر محمد بن جرير الطبري (224 — 310 هـ) . هذا التاريخ الذي بنى عليه وعلى امثاله مؤرخو اليوم كثيرا من مؤلفاتهم وتواريخهم وابحاثهم التاريخية .

قال ابن جرير في معرض كلامه عن استكبار ابليس في الارض وهلاكه :

« وقد قيل : ان سبب هلاكه ، كان من اجل ان الارض كان فيها قبل آدم الجن ، فبعث الله ابليس قاضيا يقضي بينهم ، فلم يزل يقضي بينهم بالحق الف سنة حتى سمي حكما ، وسماه الله به ، واوحى اليه اسمه ، فعند ذلك دخله الكبر ، فتعاظم وتكبر ، والقى بين الذين كان الله بعثه اليهم حكما ، البأس والعداوة والبغضاء ، فاقتتلوا عند ذلك في الارض التي سنة فيما زعموا ، حتى ان خيولهم تخوض في دمائهم ، قالوا : وذلك قول الله تبارك وتعالى : (اعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد — سورة ق 15) وقول الملائكة : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فبعث الله تعالى عند ذلك نارا فاحرقتهم . قالوا : فلما راى ابليس ما نزل بقومه من العذاب عرج الى السماء ، فاقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهدا ، لم يعبده شيء من خلقه مثل عبادته ، فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم، فكان من امره ومعصيته ربه ما كان » (ص 88 ج 1)

وفي معرض القول عن خلق آدم عليه السلام :

« وكان مما حدث في ايام سلطانه وملكه (يعني ابليس) خلق الله — تعالى ذكره — ابانا آدم ابا البشر ، وذلك لما اراد جل جلاله ان يطلع ملائكته على ما قد علم من انطواء ابليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة ، واراد اظهار امره لهم حين دنا امره للبوار وملكه وسلطانه للزوال ، فقال — عز ذكره — لما اراد ذلك للملائكة : (اني جاعل في الارض خليفة) فاجابوه بان قالوا له : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — البقرة 30) فروى عن ابن عباس ان الملائكة قالت ذلك كذلك للذين قد كانوا عهدوا من امر الجن كانوا سكان الارض قبل ذلك ، فقالوا لربهم جل ثناؤه لما قال لهم : (اني جاعل في الارض خليفة) اتجعل فيها من يكون فيها مثل الجن الذين كانوا فيها ، فكانوا يسفكون الدماء ويفسدون فيها ويعصونك ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، فقال الرب — تعالى ذكره — لهم : (اني اعلم ما لا تعلمون) يقول : اعلم ما لا تعلمون من انطواء ابليس على التكبر ، وعزمه على خلافه امري ، وتسويل نفسه له الباطل واغتراره وانا مبد لكم منه لترووا ذلك منه عيانا ..

« فلما اراد الله عز وجل ان يخلق آدم عليه السلام امر بتربته ان تؤخذ من الارض .. كما حدثنا ابو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، عن ابي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : ثم امر — يعني الرب تبارك وتعالى — بتربة آدم فرفعت ، فخلق الله آدم من طين لازب — واللازب اللزج الطيب — من حما مسنون ، منتن ، قال : وانما كان حما مسنونا بعد التراب ، قال: فخلق منه آدم بيده » — ص 89 — 90 ج 1 —

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن ابي المغيرة عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : بعث رب العزة — عز وجل — ابليس، فاخذ من اديم الارض ، من عذبها وملحها ، فخلق منه آدم ، ومن ثم سمي آدم ، لانه خلق من اديم الارض ، ومن ثم قال ابليس : (اأسجد لمن خلقت طينا — الاسراء 61) اي هذه الطينة انا جئت بها . » — ص 90 / 91 ج 1 —

« وذكر ان الله تعالى ذكره لما خمر طينة آدم تركها اربعين ليلة ، وقيل اربعين عاما جسدا ملقى » — ص 92 ج 1 —

« فلما نفخ فيه الروح انتهه الروح من قبل راسه. فيما ذكر من السلف قبلنا انهم قالوه .. » — ص 94 ج 1 .

« ثم علم الله — عز وجل — آدم الاسماء كلها . واختلف السلف من اهل العلم قبلنا فى الاسماء التى علمها آدم : اخاصا من الاسماء علم ، ام عاما ؟ فقال بعضهم : علم اسم كل شيء .. » ص 96 ج 1 .

« حدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا ابي ، عن سفيان عن خصيف، عن مجاهد : (وعلم آدم الاسماء كلها) قال : علمه اسم كل شيء .. » ص 93 ج 1 .

« حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة : قوله عز وجل : (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم) قال : يا آدم انبئهم باسمائهم » ، فانبأ كل صنف من الخلق باسمه ، والجاه الى جنسه » . (98)

« وقد قيل : ان الله جل جلاله قال ذلك للملائكة لانه جل جلاله لما ابتدا فى خلق آدم قالوا فيما بينهم : ليخلق ربنا ما شاء ان يخلق ، فلن يخلق خلقا الا كنا اعلم منه ، واكرم عليه منه ، فلما خلق آدم عليه السلام وعلمه اسماء كل شيء عرض الاشياء التى علم آدم اسماءها عليهم ، فقال لهم : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فى قيلكم : ان الله لم يخلق خلقا الا كنتم اعلم منه ، واكرم عليه منه » (ص 100 ج 1)

هذه النصوص عينة بسيطة من النصوص التاريخية التي تكاد تتفق جميعها على خط واحد ، هو ان الله — جل ذكره — تلك القوة العظمى الماثلة فى هذا الكون فيما ندرك وفيما لا ندرك ، والتي لا يعقل شيء البتة بدونها ، كما لا تعقل نتيجة ما بدون مقدمات ، ولا معلول بدون علة ، ولا بناء بدون بناء، ولا مخلوق يتصف بالبداية والنهاية بدون خالق يتصف بالقدم والازلية .. اقول هو ان الله — جل ذكره — اراد ان يخلق .. فخلق .. فكان آدم ابو البشر باحسن الصور وافضل الصفات العقلية والجسدية التي تخوله القيام بمهام الخلافة فى الارض وعمارتها ، لذلك كان — منذ كان — بشرا سويا مدركا مفكرا ناطقا له عينان ينظر بهما وله اذنان يسمع بهما وله انف يشم به وله لسان ينطق به وله يدان يبطش بهما ورجلان يمشي عليهما لاكتساب معيشته وتحقيق غاية وجوده .

ولكن هذه النصوص قد اعتمدت على النقل — غالبا — ولم تعالج الفكرة من وجهة عقلية . فهل **عندنا من نص تاريخي يتكلم فى عقلانية هذا الموضوع؟؟** لنرجع اذن ، الى العالم الفذ والمؤرخ الفيلسوف ، واضع علم الاجتماع ، واستاذ من كتب فيه من بعده.. الى البحاثة المسلم ابن خلدون .. حيث يؤمن بما آمن به غيره من المؤرخين بان الله هو الذي خلق آدم وان آدم خلق كاملا ، واودعت فيه فطرة معينة تميزه عن غيره من المخلوقات كما له صفات نفسانية لا يتمتع بها اي حيوان آخر ويتجلى ذلك بالتفكير والتصور الذين يتمتع بهما الانسان .. كما تجعله هذه الفطرة اجتماعيا يالف الآخرين لينظم مجتمعه وبيئته على ضوء هديها.

قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه : (7) .

« الفصل الاول من الكتاب الاول فى العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات » (الاولى) فى ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء من هذا بقولهم : **الانسان مدني بالطبع** ، اي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية فى اصطلاحهم . وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الانسان ، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء ، وهداه الى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري . هب انه ياكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج فى تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ويستحيل ان تولى بذلك كله او بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه

ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا فى الدفاع من نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطبـــاع فى الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانســـان فقدرة الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانســـان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل اليه من عادية غيره . وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكـــر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب من الجوارح المعدة فى سائر الحيوانات للدفاع مثل الرياح التـــي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة من المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس فى كتاب منافع الاعضاء . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد مـــن الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عـــن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تفي قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها فلابد فى ذلك كله من التعاون عليه بابنـــاء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قـــوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء فى حياته ولا يحصل له ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانـــات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشـــر واذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والســـلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله فى بقائه وحفظ نوعه فاذن الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم **وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم**، وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ، وفى هذا الكلام نوع اثبات للموضوع فى نفسه الذي هو موضوع له . وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر فى الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع فى ذلك العلم . فليس ايضا من الممنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله . ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد مـــن وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دفعه لعدوان الحيوان العجم عنهم كافيـــة فى دفـــع العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم فلابد من شـــيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم **لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم** فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بعـــدوان **وهذا هو معنى الملك** ، وقد تبين لك بهذا انه **خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها** ، وقد يوجد فى بعض الحيوانات العجم ـــ على ما ذكره الحكماء ـــ كما فى النحل والجراد ، لما استقرىء فيها مـــن الحكـــم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها فى خلقه وجثمانه ، الا ان ذلك موجود لغير الانســـان **بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضـــى الفكـــرة والسياسة** ، اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وتزيـــد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبـــات **النبوة بالدليل العقلي ، وانها خاصة طبيعية للانسان** فيقررون هذا البرهان الى غايته ، وانه لابد للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك ، **وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتي به واحد من البشر** ، وانه لابد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منـــه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف ، وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تـــراه ، ان الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته ، فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب ، فانهم اكثر اهل العالم ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار فضلا من الحياة ، وكذلك هي لهم لهذا العهد فى الاقاليم المنحرفة فى الشمال والجنوب (ولكن هذه الدول وهذه الحياة) بخلاف حياة البشر (فهي فى) فوضى (و) دون وازع لهم البتة (ووجود الوازع لهم) فانه يمتنع . وبهذا يتبين لك غلطهم فى (انكار) وجوب النبوات وانه (رايهم) ليس بعقلي . وانما (وجـــوب النبوات) مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية (8) .

النظـــرة الواقعيـــة :

البرهان الرياضي يعتمد على مسلمات .

والبرهان الطبيعي يعتمد علـــى موجـــودات (الظواهر الحسية) .

والبرهان التاريخي يعتمد على نظريات (الفرضية الظنية) ...

وغالب هذه الاسس ، وسواها مما تبنى عليها العلوم صرحها) ، تتارجح ذات اليمين وذات الشمال ، بين الظن واليقين ... بين الحتمية والاحتمال ، وبين الواجب والامكان .

فالبرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات اقليدس هو غير البرهان الذي يقوم على اساس مسلمات لوبتشفسكي ، الذي اعتبر المكان على شكل السطح الداخلي للاسطوانة ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة عن مستقيم يمكن رسم خطوط لا حصر لها موازية لهذا المستقيم . ونتيجة لهذه المسلمة اصبح مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين . ويمكن ان نتصور ان الخطين المتوازيين قد لا يلتقيان ابدا على خلاف ما قاله اقليدس ، كما ان هذا وذاك غير البرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات العالم الالماني ريمان ، الذي فرض المكان كرويا ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة عن مستقيم لا يمكن رسم خط واحد مواز لهذا المستقيم ، وفي مثل هذا المكان يمكن ان نتصور كل الخطوط متقاطعة لانها تكون شبيهة بخطوط الطول على الكرة الارضية ، تتلاقى وتتقاطع عند القطبين . ونتيجة لهذه المسلمة يصبح مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين) . ونحصل بالنتيجة على هذا التقرير المتناقض منطقيا الصحيح عمليا : (مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين — اقليدس — مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين — ريمان — مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين — لوبتشفسكي —) .

كما ان البرهنة على مبدا التقيد والحتمية في الطبيعة (هذا المبدا هو الايمان بوجود نظام ثابت عام تخضع له جميع الظواهر في الطبيعة) لم تسلم من كونها قائمة على اساس الطريقة الاستقرائية (وهي تعميم الحكم الصادر على بعض افراد الفئة على جميع الافراد في الفئة ... اي الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وهذا يناقض قواعد المنطق القائلة : — صدق الحكم الجزئي ليس دليلا على صدق الحكم الكلي —) ولكن الذي دعم هذه البرهنة هو العقل الذي لا يقبل بان تسود الطبيعة الفوضى ، دعمها بالرغم من الوقائع المادية ، ايضا ، التي تثبت انفلات عالم الذرة من مبدا التقيد والحتمية ، وعدم امكانية تحديد وضع الكهارب وسرعتها في الوقت الحاضر . (يقال ان تقيد الذرة جزئي .. بحيث لم يمكن دراستها من كتب فهي كالقطة في الغرفة المظلمة ، فلا يستطيع الدارس تحديد موضعها الا باستعمال النور واشعال النور يتبعه خوف القطة وبالتالي تحركها عن موضعها ...) .

وكذلك اختلاف النظريات حول تاريخ الارض ونشاتها بين العلماء من فلكيين وجيولوجيين فلكل واحد منهم نظرية غير نظرية قرينه ، وكل نظرية من هذه النظريات هي مدرسة قائمة بذاتها ، وقد برهن عليها قائلها برهانا لا يحتمل الشك واورد عليها ادلة وشواهد لا تجاوز العقل .. واذا اقتنع هذا العقل بالبرهان على النظرية الواحدة تعرض عليه ، لسوف يشك اذا استعرضها جميعا على هذا الشكل غير المنطقي .. مثلا:

1 — اصل الارض كتلة ملتهبة انفصلت عن الشمس .

2 — اصل الارض كتلة من كوكب ضخم انفجر في الفضاء ..

3 — اصل الارض تجمع غازات في الفضاء تجمدت فيما بعد .. وهكذا ..) .

اذن استطيع ان اعرف البرهان بانه عملية سحرية ، الغاية منها ارضاء الغرور البشري .. بحيث ان الانسان والعقل الواعي فيه بالذات لا يستطيع ان يدرك دنيا بلا حدود ، ولا شيئا بلا بداية ونهاية ، ولا ان يدرك امرا غير ملموس بحواسه فياتي البرهان العلمي لكي يشبع هذا الغرور المتجدد فينا في كل لحظة نضع فيها قدمنا على باب جديد من ابواب الغيب والسر والكتمان ، التي تحيط بعالمنا العام والخاص من كل جانب ، ملتمسين بجوانب البرهان الراحة .. ولكنها راحة مؤقتة بحيث ما يثبته البرهان اليوم قد ينقده في الغد .

بالرغم مما تقدم ، كان لابد لي من ان اسير هذا المسار ، ناخذ لبحثي ميزة البيان في نشاة الانسان ، مسلمات معينة مع اساس فكري معين ، انطلق منه واقيم البراهين على ضوئه ، بحيث ان لكل نظرية اسسا فكرية (ايديولوجية) معينة تقوم عليها .

وسوف لا يضير بحثي ان اسير به في ركاب علمائنا العظام الذين انارو للبشرية طريقها في الحضارة ، ووضعوا لها الاسس الثابتة لمختلف العلوم — على الغالب — وهؤلاء العباقرة امثال : ابن

سينا ، في الطب — وابن الهيثم في البصريات والضوء — والرازي وجابر الكوفي ، في الكيمياء — وابن فرناس في الفلك والطيران — والفارابي في النفس والجبر والإعداد — وابن رشد ، والغزالي ، في الفلسفة والاشراق وما وراء الطبيعة .. وكثير غيرهم .. قد بنوا نظرياتهم العلمية على اساس النظرة الاسلامية العامة وانطلقوا منها ولم يتجاوزوا حدودها .

ولم يكن نهجي هذا قائما على اساس التقليد الاعمى ، بل هو اعتقاد عقلي وتعجب علمي للاسباب التالية :

1) لا نستطيع ان نتصور هذا الانسان الدقيق باجهزته .. المعقد بتركيبه .. الهادف بفطرته .. الذي يتالف من مجموعة نماليات روحية ومادية .. دون منهج يضبط خطاه على الارض دفعا للحيرة ، ويحدد له معاني النور والاشراق في عالمه الخاص والعام دفعا للضياع في ظلمات النفس وعتمتها .

(.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا — الآية 48 المائدة) .

فكان الدين هدية من الخالق الى المخلوق ، وهداية له على درب التمر والاجبار .

(قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى. الآية 50 طه) .

2) وهذا الانسان بما يملك من الاحاسيس والمشاعر الراقية ، وبما ركب فيه من الدوافع الفطرية المتباينة .. مثل : دافعي : الحب والبغض — دافعي الخوف والغضب — دافعي التملك والجوع .. الخ. لا يمكن ان يسير هذا المركب العجيب بدون ناموس عام ثابت يعتقد به ، ومنهج قويم لا ينحرف ولا يتارجح يفسر له العلاقات بين هذه الدوافع المتناقضة من جهة وبين المشاعر والاحاسيس من جهة اخرى ..

(ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها ..) سورة الشمس .

منهج فيه معنى السمو والكمال، يسمح للبراهين العلمية ان تحوم حوله فتصيبه تارة وتخطؤه اخرى حتى تصل الى الحقيقة .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — فصلت 53) .

3) والاسلام الذي هو خاتم الديانات السماوية ، واكملها تشريعا ، واثبتها رواية ونقلا واقربها من انسان اليوم نزولا من السماء .. **هذا الاسلام قد برهن على صحته واثبت صدقه وتفوقه وموضوعيته على طول التجربة التي عاشها خلال اربعة عشر قرنا** . واذا كان هناك من يماري ، ويجادل في غير حق ، ويسلك سبيل السفسطائيين في الجدل العقيم ، فسوف لايجد مناصا من الاذعان او السكوت على جهود امام النصوص الاسلامية التي كشفت الستر عن المستقبل فتكلمت عنه بايجاز احيانا وباسهاب احيانا اخرى ، وكذلك النصوص التي جاءت تستشهد بالظواهر الكونية كدليل على عظمة الله ، لم تتجاوز هذه النصوص الحقائق العلمية المثبتة حتى عصرنا هذا ، والامثلة على ذلك وفيرة ويجدها كل من استقرا النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الصحيحة وكان على جانب من الاطلاع والمعرفة وبعد النظر والانصاف .. وسانبت بعضها هنا للاعجاز ..

أ — في الاشارات الفلكية والحقائق الكونية :

1) الارض تدور .. قال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء .. — النمل —) .

2) والكواكب والنجوم كلها تدور .. (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون . — يس —) . والتنوين في (كل) عوضا عن الاضافة التي هي بمعنى كل ما في الفضاء .. وكلمة يسبحون تدل على مادة العوالم الاصلية (الاثير) التي يسبح بها كل شيء .

3) العوالم منظومات من الكواكب المتجاذبة .. (والسماء ذات الحبك — ومالها من فروج — وفي مطلع سورة الملك : .. الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

4) المطر من الارض والى الارض .. (.. والارض بعد ذلك دحاها . اخرج منها ماءها ومرعاها ..)

5) والمطر يهطل من السحاب المتراكم .. (الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله — النور 43 —) الودق : المطر .

6) والرياح هي التي تسوق الغيوم .. (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده ، اذا هم يستبشرون — الروم 49 —) .

7) والارض بعدما تشكلت طبقاتها نهضت فيها سلاسل متعددة من الجبال لكي تتماسك تلك الطبقات فلا تنزلق وبالتالي لتتوازن الارض وتستقر الحياة عليها ..

(والجبال اوتادا — والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون — الحجر — والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون — النحل —) . وفي الآيات الآتية يلاحظ الانسجام بين مفهومنا وبين مفهوم احدث النظريات الجيولوجية حول بعض المراحل التكوينية التي مرت بها الارض .. (.. والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعا لكم ولانعامكم — النازعات —)

8) الطيران في الاجواء العالية يؤثر على جهاز التنفس وجهاز دوران الدم ، فيرتفع الضغط ويعيق التنفس ، ويصحب ذلك اعراض نفسية وجسدية اخرى .. ولننظر الى هذه السورة البليغة المعبرة عن الواقع (.. ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء .. — الانعام 125 —) .

9) النفاذ من الجاذبية الارضية الى الفضاء ، ثم من الفضاء القريب الى فضاء آخر هذا ممكن ولكن بشرط .. (يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان .. — الرحمان —) .

10) الخطوط المرسومة على البصمات تختلف من انسان الى آخر ، وقد لا تتفق بصمتان لانسانين في العالم ، ولما اكتشفت هذه الخاصة استعملت كعلامة مميزة يبصم بها الانسان على تقريراته وتوقيعاته . والقرآن الكريم قد اشار الى هذه الخاصية في معرض القدرة والاعجاز فقال : (.. ايحسب الانسان الن نجمع عظامه ، بلى ، قادرين على ان نسوي بنانه .. — القيامة —) .

ب — اخبار الله تعالى بانتصار الروم على فارس قبل تسع سنوات من الحادث :

الم . غلبت الروم في ادنى الارض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . — روى ابن جرير — باسناده — عن عبد الله بن مسعود — قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس ، لانهم اهل كتاب وهم اقرب الى دينهم . فلما نزلت : « الم. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين » . قالوا (اي المشركون) : يا ابا بكر ان صاحبك يقول : ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا — هل لك ان نقامرك (اي نراهنك — وجاء في خبر آخر ان ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر) فبايعوه على اربع قلائص الى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : (ما بضع سنين عندكم) : قالوا : دون العشر . قال (اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الاجل) . قال فما مضت السنتان ، حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) — الظلال ج 21 ص 25 .

ج — اخبار الرسول الكريم عن الحوادث التي ستكون بعد وفاته :

1) بشر محمد صلى الله عليه وسلم بأن كنوز كسرى وقيصر ستنفق في سبيل الله .. (عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد مات كسرى فلا كسرى بعده، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله . » — صحيح مسلم — كتاب الفتن — ج 8 ص 186 — .

وفي هذا اشارة الى السيادة التي ستحققها راية الله على ملك كسرى وقيصر .

2) لقد مرت فترة على المسلمين بعد استشهاد عمر رضي الله عنه مليئة بالفتن .. وقد اخبر عنها الرسول

(عن اسامة : ان النبي صلى الله عليه وسلم، اشرف على اطم من آطام المدينة ثم قال : « هل ترون ما ارى ؟ .. اني لارى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » . — المرجع السابق 167 —

3) السبئية فتنة ضالة اظهرت الاسلام وابطنت الكفر ترجع نسبتها الى عبد الله بن سبا اليهودي . لقد عملت هذه الفتنة بالبغي بين المسلمين ففرقت صفوفهم واوقعت الحروب بينهم وكانت سببا في قتل الكثير من الصحابة الكرام ، وقد اخبر الرسول عن قتل بعضهم :

(عن ام سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار : «تقتلك الفئة الباغية » — المرجع السابق —

4) عثمان بن عفان رضي الله عنه من المبشرين بالجنة وباستشهاد . فقد ورد ان الرسول كان مع ابي بكر وعمر وعثمان على جبل احد . فاهتز الجبل فقال الرسول مخاطبا الجبل « اثبت احد ان عليك الا نبي وصديق وشهيدان » . ومن الحديث الطويل المشهور الذي اخرجه البخاري (ان ابا موسى الاشعري استاذن لعثمان على رسول الله ، فقال الرسول : « ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء يصيبه » . — البخاري ج 9 ص 69.

5) الحسن بن علي سبط رسول الله هو الذي اجهد على الفتنة وقبرها ومهد طريق الصلح بين المسلمين ولقد تنبأ الرسول بذلك والحسن ما زال صغيرا . قال ابو بكرة : بينا النبي يخطب جاء الحسن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ابني هذا سيد ، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين . — المرجع السابق — .

6) لقد سادت شرعة الاسلام قرونا طويلة كانت خلالها تتارجح — كدولة — بين القوة والضعف ، وذلك بحسب الاناس الذين يمثلونها ، ويعتبر الغاء الخلافة الذي اعقبت اعلان الدستور في تركيا في عام 1908 على يد مصطفى اتاتورك والاتحاديين الاتراك آخر ضربة توجه الى الدولة الاسلامية ، حيث لم يقم لها قائم بعدها . اللهم الا ما قام بحدود ضيقة جدا وفي اطراف متباعدة خلال السنين القريبة التي نعيشها ... ولكن الغالب على الممالك الاسلامية هو ما انتشر من دعاوي الالحاد والمادية والوطنية والقومية منذ الغاء الخلافة وحتى عصرنا هذا . وفي الحديث الآتي تحليل رمزي مسبق ومقتضب لهذه الفترة من التاريخ :

(قال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسالون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت اساله عن الشر مخافة ان يدركني ، فقلت : يا رسول الله انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم . قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ .. قال : نعم دعاة على ابواب جهنم من اجابهم اليها قذفوه فيها . قلت يا رسول الله صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا ، قلت فما تامرني ان ادركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وامامهم قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا امام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو ان تعض باصل شجرة ، حتى يدركك الموت وانت على ذلك — البخاري — ج 9 ص 65 —) .

د — اخبار الرسول الكريم عن الحوادث التي تسبق قيام الساعة :

1) عندما نكث اليهود عهودهم مع رسول الله في المدينة قاتلهم وشتتهم في البلاد ، ولم يكن لهم بعدها دولة . ولكنه اخبر عن تجمع سيكون لهم ، وقتال سيقع بين المسلمين وبينهم ، فهناك عدة روايات في الصحاح وغيرها ، كل رواية لها ميزة وتنفرد باشارة ، ولكنها تجتمع كلها على ما ذكرت ، فمن هذه الروايات :

أ) (عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله » .) — صحيح مسلم ج 8 ص

188 — في هذا الحديث اشارة الى انهم هم المعتدون بالاضافة الى تجمعهم حيث لا يقاتل قوم الا ولهم دولة (وقد حدث) .

ب) عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر او الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود .

— المرجع السابق — اذا كان شجر الغرقد لا ينزرع الا في فلسطين — كما قال لي قائل — ففي الحديث اشارة الى مكان تجمعهم ، ولعل هذا الشجر قد نسب اليهم لانهم اكثر الناس زراعة له في زمن معين ومكان معين .. ولقد شاهدت هذا الشجر على جبال الخليل فهو شجر قصير القامة كثيف الاغصان والاوراق ، اغصانه على تماس مع الارض مما يجعل له جيوبا تتسع للاختباء ، ويحمل ثمرا صغيرا بقياس حبة الفول اليابسة ، وهو قريب بالطعم من الخرنوب .

ج) ومن اعجب الاحاديث التي سمعتها — ولا اعلم مدى صحتها — هذا الحديث الذي يحدد مكان القتال بين اليهود والمسلمين :

« لتقاتلن اليهود على نهر يقال له الاردن انتم على شرقيه وهم على غربيه » .

واما الحديث عن الفئتين العظيمتين اللتين ستقتتلان ويكون بينهما مقتلة عظيمة .. ومن كثرة الزلازل والشرط وتقارب الزمان .. فالحديث عنها طويل وايراد الشواهد عليها وتحليلها ضرب من المحال في هذا البحث بالذات . وانما اثبت هنا حديثا نبويا ، عجبا ، يمدنا باليقين الذي لا تشوبه شائبة عن صدق الاسلام وكون رسوله لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .. هذا الحديث الذي وقعت اكثر فقراته ولمسنا وقوعها بايدينا وشاهدناه بام اعيننا قد قرأته في كتاب (محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار — لسيدي الشيخ محيي الدين بن عربي) وهو من المطبوعات الاثرية بالخط الحجري في مكتبة استاذي الشيخ محمد ابي الفرج الخطيب .. هذا نصه :

(وروينا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الحجة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل بوجهه على الناس فقال يا معشر المسلمين ان من اشراط القيامة اماتة الصلاة واتباع الشهوات وتكون امراء خونة ووزراء فسقة فوثب سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال ، بابي انت وامي يا رسول الله ان هذا ليكون . قال نعم يا سلمان ، وعندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا قال : ويكون ذلك . قال نعم يا سلمان ، وعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى ولا يستطيع ان يغيره . قال او يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . ويؤتمن الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، قال او يكون ذلك قال : نعم يا سلمان ان اولى الناس قوم المؤمن بينهم يمشي بالمخافة ان تكلم اكلوه وان سكت مات بغيظه . يا سلمان ما قدست امة لاتنتقم من قويها لضعيفها ، قال : اليكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . عندها يكون المطر قيظا والولد غيظا وتفيض اللئام فيضا وتغيظ الكرام غيظا ، قال ويكون ذلك ؟ قال : نعم يا سلمان عندها يعظم رب المال ويباع الدين بالدنيا وتلتمس الدنيا بعمل الآخرة واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب ذوات الفروج السروج فعليهم من امتي لعنة الله ، يا سلمان عندها يلي امتي قوم جثتهم جثة الناس وقلوبهم قلوب الشياطين ان تكلموا قتلوهم وان سكتوا استباحوهم لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا لساء ما يزرون ونوطا حرمتهم ويحار في حكمهم عند ذلك تكون امارة النساء ومشاورة الاماء ونفوذ الصبيان على الناس وتكثر الشرط وتتحلى ذكور امتي بالذهب ويتهاون بالزنا وتظهر القينات ويتغنى بكتاب الله وتتكلم الرويبضة ، قلت بابي انت يا رسول الله وامي ، وما الرويبضة ؟؟ قال : يتكلم في امر العامة من لم يتكلم قبل ، قال او يكون ذلك يا رسول الله . قال نعم يا سلمان ، عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس والبيع وتحلى المصاحف بالذهب وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والالسن مختلفة ونوالهم لمعة من اعطى على لسان من اعطى شكر ومن منع كفر قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك يأتي سبايا من المشرق والمغرب تكون من امتي فويل للضعفاء منهم وويل لهم من الله ان تكلموا قتلوا وان سكتوا قتلوا موت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله ، قال ويكون ذلك ، قال نعم يا سلمان . عندها تشارك المرأة زوجها

في امره ويمق الرجل والده ويبر صديقه يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب علماؤهم شر من الجيفة قال او يكون ذلك يا رسول الله قال نعم يا سلمان . عندها تكون عبادتهم فيما بينهم التلاوة لها فيما ولا بد يسمون في ملكوت السموات والارض الانجاس الارجاس ، قال ويكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك يتخذ كتاب الله مزامير وينبذ كتاب الله وراء ظهورهم يمطلون الحدود ويميتون سنتي ويحبون البدعة ولا يقام يومئذ بنصر الله لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عندها يغار على الغلام كما يغار على الجارية ويخطب كما تخطب النساء ويهيء كما تهيء المراة . عندها تقارب الاسواق قلت بابي انت وامي يا رسول الله وما تقارب الاسواق ، قال يقول لا ابيع ولا اشتري ولا رازق غير الله . يا سلمان عندها تليهم الجبابرة ويمنعون حقوقهم ويملأون قلوبهم رعبا ، فلا ترى الا خائفا مرعوبا عند ذلك يرفع الحج فلا حج ، يحج كبار الناس للهوى واوساط الناس للتجارة وفقراء الناس للرياء والسمعة ، قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان ، الحديث ، وسياتي معناه في هذا الكتاب مستوفى من حديث الكناني وقد انتهى المجلس من محاضرة الابرار .. — ص 39 — 40 الجزء الاول —).

وبعد ، فلا سبيل الى نكران الاسلام ، والموارية من سبيله المستقيم .. وخاصة بعد ان ثبتت صحته ، وتبين للقاصي والداني صدق نصوصه ومروياته .

لهذا كله جعلت الاسلام اساسا فكريا لبحث (ميزة البيان في شان الانسان) والله ولي التوفيق .

الانسان والبيان :

اذا آمنا ان الانسان مركب شديد التعقيد تسير كل خلية من خلاياه بنظام عجيب ، واذا علمنا ان عالم الفلك يموج بالكواكب والنجوم ، وانه يسير ايضا بنظام عجيب دقيق ، واذا قارنا بين هذا الانسان المذهل التركيب ، وبين ذلك الكون بنظامه الدقيق ، وحجمه الواسع الشاسع ، لوجدنا ان الانسان مثاله كما قال حافظ ابراهيم :

« وما انا الا ذرة قد حواها ذرة في فضاء ربي تدور »

اذن فالانسان لا يمكن ان يقوم بذاته ولابد من يد خفية وقوة لا يراها ولا يدركها قد اوجدته قمرا وسوف تخرجه من هذه الحياة قمرا وهي تتحكم بمصيره شاء ام ابى ، وذلك ما اثبته ايضا ، اصحاب النظريات العلمية في السابق وفي الحاضر كامثال العالم جيمس جينز — في الفلك — والعالم الدكتور اليكسس كاريل — في علم الحياة — والعالم انشتاين — في الذرة والفضاء — .. الخ وبهذا يتحقق قول الله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) .

وهذا يتبعه بالعقل كون الانسان لم يترك سدى ، ولا بد له من مرشد ودليل في خضم هذه الحياة الزاخرة بالمتناقضات (قال : فمن ربكما يا موسى ؟ ، قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .. — طه —) .

ولا بد هناك من خط عام وحيد في نفس الوقت لكي يسير عليه خليفة الله في ارضه .. فكان الكتاب (او قل القرآن .. وهو لغة الضم والجمع) الذي خطه القلم على اللوح المحفوظ من عالم الازل والذي علمه الروح الامين رسول الله الى الانبياء والمرسلين (جبريل عليه السلام) فكان ينزل باحكامه على الانبياء والرسل بحسب ما تحتاجه الامم والقبائل التي ينتمون اليها .

وفي خاتمة المطاف ضم القرآن وجمع كل هذا فسمي قرآنا ، وتمت به كلمة الله ومنهاج الله القويم لهذا الانسان .. فجاء الخطاب للبشرية : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) والدليل على هذا من كتاب الله جل وعلا ، ايضا :

« الرحمان ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان »

هذه الآيات الرائعة ذات الوزن الموسيقي البديع تحمل اعمق المعاني ، وادق التعبير .

انها مطلع الاعلان العام — سورة الرحمان — الموجه الى العالمين الانسي والجني ، ومفتاح الخطاب في ساحة الوجود .

هذا الاعلان يذكر بالآلاء والنعم .. ويستجلب القلوب الى الصراط المستقيم .. ثم يهدد ويتوعد الذين يميلون عنه بالاخذ الشديد والعذاب الاليم ، وهو بين كل فقرة واخرى يسال على صيغة الاستفهام التقريري (فباي آلاء ربكما تكذبان) مكررا ذلك احدى وثلاثين مرة .. ويرد الثقلان بالقول : (ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) (9) .

ولم ينس هذا الاعلان ان يذكر الانسان والجان باصل النشأة وخاتمة المطاف (كل من عليها فان) والذي يوجهنا اليه البحث من الفيض الطاهر العزيز لهذا الاعلان هو اصل النشأة وميزة البيان فنعود الى:

(الرحمن) .. اسم من اسماء الله الحسنى يفيد الرحمة العظمى التي اشتقت منها كل رحمة والتي تعود الى فضلها كل نعمة ويضاف الى فيضها كل منة كانت وستكون فاسم الرحمن اذن خليق بهذه البداءة، جدير بهذا المطلع في هذا الاعلان العام ..

(علم القرآن) .. هذه الآية جملة فعلية جاءت بصيغة الماضي . الفاعل فيها الرحمن جل وعلا ، والفعل الماضي (علم) يحتاج الى مفعولين فكان الاول (القرآن) والثاني محذوف قدره كل مفسر بما الهمه الله والاغلب هو جبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالوحي على الانبياء والرسل .

ومجيء هذه الآية (علم القرآن) قبل (خلق الانسان في هذا الوجود وسلكه طريق الامن انما له دلالة على كون هذا العلم قد سبق خلق الانسان بالفعل .

والقرآن تلك النعمة العظيمة التي تحدد طريق الانسان في هذا الوجود وتسلكه طريق الامن والسكينة والنجاة ، فلا يكون ضائعا في متاهات الكون والنفس ولا شريدا من حضرة الروح .

لذلك كان القول وتعليمه جبريل قبل خلق الانسان .. (فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) — الواقعة 75 — 80 — .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السماوات والارض بخمسين الف سنة — قال — وعرشه على الماء) . — الجزء 7 — باب القدر — .

ومن وصايا عبادة بن الصامت لابنه وهو على فراش الموت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال رب وماذا اكتب ، قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ..) ذكر الحديث باكمله ابو داوود في سننه (10) .

(خلق الانسان) .. بصريح العبارة (خلق الانسان) لكي لا يضيع هذا الانسان في بحر التساؤلات والتكهنات .. خلق الله الانسان بكل ما فيه من اجهزة وخلايا وبكل ما معه من مواهب وصفات وميزات خلقه .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا سويا .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا خلقه .. (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ..) ويتعلق بالعبادة مفهوم المعرفة معرفة الله جل وعلا.

وكيف خلقه : (الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون . يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون — السجدة — وسيأتي معنى توضيح ذلك في قصة البشرية الاولى .

(علمه البيان) .. البيان هو التعبير والتوضيح وآليته كبيرة تبتدأ من الرئتين وما فيها من قصبات وحجرات الى الحنجرة ثم الاحبال الصوتية والحلق واللسان والاسنان وما يربط ذلك من اعصاب تتصل بالدماغ .

لماذا افردت ميزة البيان عن غيرها من صفات الانسان علما بان الآلية التي تؤدي اليه ، تقريبا هي نفس الآلية الموجودة في الحيوان الناطق (الببغاء — نوع من انواع الطيور) وموجودة ايضا في الحيوان الابكم (سائر الحيوانات) ..

وهنا سر الاعجاز الالهي ، يتجلى بهذا الافراد، فنفس الآلية تجعل من الحيوان مخلوقا ابكم لا يستطيع التعبير عما يجيش في صدره حيث لم نسمع على مدى التاريخ ان حيوانا واحدا قد نطق .

وهذه الآلية بالذات جعلت من الببغاء ذلك الطائر الاليف ، مخلوقا ناطقا ولكن بدون وعي ولا

ادراك ، وهنا ايضا لم يذكر لنا التاريخ على مداه ان ببغاء واحدا قد اجتاز مرحلة النطق الى مرحلة البيان والتعبير عما يختلج فى حناياه مرحلة الفهم والادراك الصحيح . وشأن الببغاء شأن المردد الذي يرجع الصوت كما هو ويحاكيه فيما يسمع منه . وما عدا ذلك فلا نطق ولا كلام .

وبنفس الآلية كان الانسان مخلوقا ناطقا معبرا مدركا يبين عن احساساته بالنطق ويعبر عنها بالهمسات ويرسم خوالج نفسه بدفقات من الهواء تخرج من بين اسنانه ولسانه .

لهذا كله افرد البيان وميز فى خلق الانسان (خلق الانسان .. علمه البيان) . لقد جعل الله لهذه الآلية سرا وميزة فى الانسان ، فلو قال الله — وقوله الحق — خلق البيان : لقلنا : سوف ينطق الحيوان لانه يتمتع بنفس الآلية او لكان من الواجب ان تختلف آلية الحيوان عن آلية الانسان ، والواقع انها واحدة فى الاثنين لاظهار القدرة والابداع مختلفة فى النتيجة حيث مكنت الانسان من البيان الكامل ولم تمكن الحيوان الا من بعض الاصوات .

وثمة سؤال يطرح نفسه فى هذا المجال : متى نطق ابو البشرية — آدم — هل كان ذلك عقب تيامه بشرا سويا ام انه عاش فترة زمنية بدون نطق ، والجواب : انه لا يعقل ان يكون ناقصا وخالقه يقول (وصوركم فاحسن صوركم ..) ولابد لهذا المخلوق من ان يتعامل مع بيئته بحسب ما رسم له من غايات واهداف ، والتعامل يكون مبتورا لو كان هذا المخلوق ابكم لا يدرك شيئا ولا يستطيع التعبير عنه .

وآدم تعامل مع بيئته بالكلام والنطق منذ اول لحظة لدبيب الحياة فى جسده والدليل على ذلك نستخرجه من قصة البشرية الاولى التي ذكرها الله بقوله الكريم :

(واذ قال ربك للملائكة اني جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انبأهم باسمائهم قال : الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم — سورة البقرة — .

ومن سورة الاعراف : (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

من هذا السرد الخاطف لكلام الله تعالى فى قصة البشرية الاولى نستخرج عدة ملاحظات تناسب موضوعنا اهمها :

1 — خلق آدم كان اعجازا للملائكة واظهارا لقدرة الله على تكوين مخلوق مادته من احط العناصر ولكنه سام بسمو الروح التي فيه ، عالم لامور لا تعلمها الملائكة الذين يبدونه بالعنصر ويتمالون عليه بالنور .

2 — ان ما فرس فى فطرة آدم من دوافع اساسية تدفعه الى التعامل مع هذه الارض واكتشاف خيراتها وتحقيق خلافة الله فيها ، تلزمه ان يسمي كل شيء باسمه مما سيوضع تحت يديه، ومما يراه فى بيئته ، فكان ان علمه الله اسماء كل شيء بطريق الالهام ، فلما نزل الى ساحة المبارزة مع الملائكة كان يجيب على كل سؤال ويسمي كل شيء ، والملائكة لا تستطيع ذلك ، وتمت كلمة ربك (.. الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .

3 — ان فكرة الخلود ، والملائكية التين استطاع بهما الشيطان ان يطغى آدم وزوجه وكذلك احساسهما بالخطيئة، وطلب العفو بالاستغفار، ومن ثم الرجوع والتوبة .. كل ذلك يتطلب لغة عالية ، ومنطقا رفيعا ، وبيانا اصيلا ، للتعبير عنهـــا .

اذن فالحقيقة الاولى ان الله خلق آدم وسواه بيديه على احسن صورة واكمل شكل ناظرا سامعا ناطقا مبينا ، وانه نطق من اول لحظة تنسم فيها نسيم الحياة وتعامل مع بيئته وناسه باسمى لغة وادق تعبير ...

فسبحان الذي يقول للشيء — اذا اراده — كن .. فيكون . وصدق الله اذ امتن على الانسان بقوله : « الم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » .

والسؤال الذي يتردد في هذا المجال : ما هي هذه اللغة التي تكلم بها الانسان الاول ؟!

اللغـــــة الام :

واوبة صغيرة الى التاريخ لنتصور من خلالها على شكل ممكن وقريب اول السلسلة البشريـــة منطلقين من آدم وهو ذكر فرد على الارض والى جانبه زوجه حواء الانثى الفردة .

فقد عاش آدم على الارض زهـاء 1.000 سنة ، وقد انجبت له حواء عشرين بطنا في كل بطن ذكر وانثى . وبلغت ذريته في حال حياته قرابة 40 الف نسمة ، في — بوذ — وقد اوصى قبل موته الى ابنه « شيث » . سار آدم في حياته على نهج الصحف التي نزلت عليه فهو اول نبي واول رسول واليه ترجع مبادىء علم كل شيء استلزمته حياة البشرية الاولى .. ومات قبل الطوفان بنحو 726 سنة ، بعد ان ادى الى البشرية ما يلزمها من دواعي البقـــاء والاستمرار والتحسن . وبعد ما افرغ اوصية العلم الذي اودعه الله عنده .

واما « شيث » الابن الوصي فقد ولد في العام 130 من حياة ابيه آدم . عاش في مكة يحج ويعتمر. وجمع الصحف التي نزلت على ابيه ونسخها الـــى الصحف التي نزلت عليه وهكذا كان شان الانسان بارتباطه بالسماء ففي كل فترة شيء جديد وعلـوم جديدة تناسب الانسان في تطلعاته الجديدة فيضيفها الى سابقتها ويسير على نهجها — وشيث النبي سار على هذا النهج ، وقام بالامر والنهي والدلالة على طريق السعادة . ويقال انه بنى الكعبة بالحجـارة والطين . وهي اول بيت وضع للناس ، ولعل بناء هذا البيت كان **المحرك الاول لفكرة البناء** التي اخذ بها الانسان من صور سحيقة ، كما ان « شيث » هو **المعلم الاول** في هذا الموضوع . **والبناء الاول** . ولد له نفر كثير ولكن الوصية كانت في ابنه « انوش » .

وتتابع هذه السلسلة التي هي اصل البشرية فيما بعد فانوش ولد له نفر كثير واما الوصي فهو ابنه قينان الذي ولد في العام « 325 » من حياة آدم ، وولد لقينان نفر كثير منهم « مهلائيل » وهو الوصي وولد لمهلائيل نفر كثير منهم « يرد » وهو الوصي وولد ليرد نفر كثير منهم « اخنوخ » وهو الوصي .

واخنوخ هذا هو ادريس النبي سمي ادريسا لدراسته الصحف التي نزلت على آدم وشيـــث ، **وادريس هو اول من نظر في علم النجوم والحساب ، وهو اول من خاط الثياب ولبس المخيط** .. فهو اذن من تلك المحركات التي نبهت الدوافع العميقة في الانسان على درب البناء والتطلع الى المستقبل وتحســين الوسائل التي بين يديه واكتشاف ما خبىء من اسرار في هذه الارض وما يحيط بها .

ولد لادريس خلق كثير وكانت الوصية لابنـــه « متوشلخ » وكذلك متوشلخ اوصى لابنه « لمـك » . ولمك هذا هو ابو نوح الرسول . فكانت السلسلة من آدم الى نوح كما يلي :

آدم — شيث — آنوش — قينان — مهلائيل — يرد — ادريس — متوشلخ — لمك — نوح .

ولقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت على ملة الحق . وانما وقع الكفر والفساد في القرن الذي بعث فيه نوح بالانذار والوعيد حيث كثر الفساد وشاع الكفر والالحاد .

ولد نوح في العام 126 من موت آدم اي في العام « 1126 » من حياة البشرية وقد ارسل الى قومـــه ، ومكث فيهم يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر زمنا

طويلا ، فما آمن معه الا قليل فدعا دعوته المدمرة التي شملت كل مخلوق على الارض ، ما عدا اهل السفينة (وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا — نوح 26 — 27 —) .

امر نوح ببناء الفلك وعندما باشر فيها سخر قومه منه لانهم لم يتصوروا ان بناء ما سيعوم على وجه الماء ، وبهذا الفتح الجديد في عالم النجارة والعوم بالمنجور على صفحة المياه يكون نوح احدى الحلقات في سلسلة العلوم واصولها التي بنت عليها البشرية ، وما زالت تبني حضاراتها المختلفة .

« واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل .. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . (هود) »

يتكلم علم الجيولوجيا عن اكثر من مرة طغت فيها مياه البحر والامطار الغزيرة على اليابسة فغمرتها كليا، وأحيانا تغمر اكثر اجزائها او بعضها ولكن مع اختلاف بين علماء الجيولوجيا حول تحديد تلك الازمنة الجيولوجية التي حدث فيها طغيان المياه على الارض وقرب تلك الحوادث من التاريخ البشري او بعدها عنه .. واذكر على سبيل المثال حادثتين مما يذكره علم الجيولوجيا :

1 — حدث طغيان بحري عام (طغيان العصر السينوماني) دلت عليه الاراضي الحوارية في مختلف الاصقاع . وذلك في منتصف الدور الحواري (الكريتاسي) وهو آخر ادوار الزمن الثاني الجيولوجي والذي تليه حقبة الحياة الحديثة .

2 — في دور الميوسين (الدور قبل الاخير من الزمن الثالث) تقلص البحر المتوسط الكبير (التيتيس) حتى اصبح اصغر رقعة من البحر المتوسط الحالي ، ثم طغت البحار على اليابسة فاتسعت رقعة البحر المتوسط واصبحت ابعاده شبيهة بابعاده الحالية واغلق من الشرق ، وذلك في البليوسين ، وهو الدور الاخير من ادوار الزمن الثالث — الملقب بحقبة الحياة الحديثة) دور بدء ظهور الانسان على الارض .

هذه المقالة الجيولوجية تتراوح بين تطلبي الظن واليقين حتى بين علماء الجيولوجيا انفسهم . واما الذي أومن به انا فهو ان الطوفان قد حصل ، وهو طغيان الماء على اليابسة بشكل عام ذلك الطغيان الذي دمر الحياة واغرق الاحياء والنبات ، ولا زالت الحفريات تكشف عن هياكل احياء تلك الحقبة من ناس وحيوانات وعن اشجارها ونباتاتها المطمورة.. وما البترول وتركيبه العضوي سوى دليل واضح على تلك الاجساد التي أغرقت بالماء ، وطمرت عوامل الانجراف . حيث ثبت بالتحليل وجود مواد في البترول تنتج عادة من تحليل بخضور النباتات أو خضاب الدم .

كما ان الزمن الذي حصل فيه الطوفان قريب من زمننا هذا وعلى بعد (4.500 — 5.500) وهذا الرقم يكاد لا يذكر أمام الارقام الخيالية التي يضعها علماء الجيولوجيا رغم اختلافها ، والذي دعاني الى اغفال ما قالوا وتثبيت هذا الرقم (4.500 — 5.500) هو :

1 — عدم اتفاقهم على رقم معين ، بالاضافة الى الفروق الشاسعة بين ارقامهم انفسهم .

2 — ما فرضه علي الخط الذي اتبعه في بحثي هذا من حيث البناء على الاخبار التاريخية فهي التي دفعتني لوضع هذا الرقم .

لنرجع الى بحثنا الاصيل فاقول :

يعتبر نوح ابا البشرية بعد آدم حيث ان الذين ركبوا معه هم أبناؤه وأسرهم المؤمنون (قال عز وجل: وجعلنا ذريته هم الباقين .. ثم أغرقنا الآخرين . (الصافات) .

وقد أجمع المؤرخون ان لنوح اربعة اولاد هم : كنعان ــ سام ــ حام ــ يافث . اما كنعان فهو الغريق ، واما الثلاثة الآخرون فالى نسلهم ترجع البشرية .

وفى الحديث : الذي رواه اكثر من واحد من طريق (قتادة والحسن وسمرة بن جندب وعمران بن حصين) رضوان الله عليهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث، فسام ابو العرب ، وحام ابو الزنج ، ويافث ابو الروم »

فسام اذن ابو العرب ، واليه ترجع اللغات السامية كلها ، وكان من اولاده ارم ــ وارفخشد ــ واشوذ ــ ولاوذ وعويلم .

وولد لارم بن سام : عوص ــ وغاثر ــ وحويل، وولد لعوص : غاثر بن عوص ، وعاد بن عوص ، وعبيل بن عوص . وولد لغاثر بن ارم : ثمود بن غاثر وجديس ابن غاثر . وكانوا قوما عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري ، فكانت العرب تقول لهذه الامم : العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون لبني اسماعيل (ابن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ ابن ارغوا بن فالغ بن غابر بن شالخ بن قينان بن ارفخشد بن سام) العرب المتعربة لانهم انما تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهرهم . فعاد وثمود والعماليق (الكنعانيون) واميم وجاسم وجديس وطسم هم العرب (كما يقول التاريخ) .

ومن ولد ارفخشد بن سام الانبياء والرسل وخيار الناس والعرب كلها والفراعنة بمصر ومن ولد يافث ملوك الاعاجم كلها من الترك والخزر وغيرهم ، والفرس الذين آخر من ملك منهم يزدجرد بن شهريار ابن ابرويز ونسبه ينتهي الى جيومرت بن يافث بن نوح .

واما قحطان بن عابر الذي حكم اليمن والذي هو اول من سلم عليه بـ (ابيت اللعن) فكانت نسبته الى نوح كالآتي :

« نوح ــ سام ــ ارفخشد ــ قينان ــ شالخ ــ عابر ــ قحطان ــ يعرب .. وهكذا » ولقد ولد لعابر (وهو ابو قحطان) قحطان وفالغ ، وفالغ معناه قاسم وسمي بهذا الاسم لان الارض قسمت والالسن تبلبلت فى ايامه .

وعلى ذكر بلبلة الالسن ، ذكر المؤرخون ان اللغة كانت واحدة بالنسبة لذرية نوح وقد تفرعت واختلفت فيما بعد ، وقد وردت عدة اسباب لهذا الاختلاف منها: ما يقوله ابن جرير الطبري فى تاريخه (ص 210 ج 1)

«وكان مولد فالغ بعد الطوفان بمئة واربعين سنة فلما كثر الناس بعد ذلك مع قرب عهدهم بالطوفان هموا ببناء مدينة تجمعهم فلا يتفرقون أو صرح عال يحرزهم من الطوفان ان كان مرة اخرى فلا يغرقون ، فاراد الله عز وجل أن يوهن امرهم ويخلف ظنهم ويعلمهم ان الحول والقوة له ، فبدد شملهم وشتت جمعهم وفرق السنتهم ، وكان عمر عابر (474 سنة) »

« وقال الحارث بن محمد : كان يقال لعاد فى دهرهم عاد ارم فلما هلكت عاد قيل لثمود ارم ، فلما هلكت ثمود قيل لسائر بني ارم : ارمان ، فهم النبط ، فكل هؤلاء كان على الاسلام (أي التسليم لله الواحد) وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح فدعاهم الى عبادة الاوثان ، فعدلوا فمسوا وكلامهم السريانية ثم اصبحوا وقد بلبل الله السنتهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فصار لبني سام ثمانية عشر لسانا ولبني حام ثمانية عشر لسانا ولبني يافث ستة وثلاثون لسانا ، فقسم الله العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعمليق وطسم واميم وبني يقطن بن عابر .

وبهذا الموجز التاريخي نكتفي لنرجع الى موضوعنا الاساسي **ما هي اللغة الام التي تكلم بها الانسان الاول** ثم ورثها بنيه من بعده .

المعروف ان الاسرة هي المدرسة الاولى للانسان فمنها يتلقى اول ما يتلقى اللغة ثم العادات والتقاليد ثم الاخلاق والمثل .. الخ .

ومن السرد التاريخي الموجز الآنف الذكر نجد بالضرورة ان **السلسلة البشرية** ما بين آدم ونوح وبالتالي ابنائه (سام وحام ويافث) **كانت تتكلم لغة واحدة** .

اولا ــ لان الصلة وثيقة بين الاب (الموصى) والابن (الموصى له) .

ثانيا ــ لقلة العدد وغلبة الاجتماع فى منطقة واحدة ــ الا ما ندر .

ثالثا ـ لطول حياة آدم وقربها من مولد نوح عليهما السلام (126 سنة) .

فاذا ثبت ذلك نرجع لنبحث عن تلك اللغةالواحدة التي سادت تلك الحقبة من التاريخ ودونت الفاظها على وجه البسيطة .

وبناء على ما تقدم : **فان آدم عليه السلام قد تكلم ـ اول ما تكلم ـ في الجنة قبل ان يهبط الى الارض ،** واجرى مناظرته في علم الاسماء مع اهل الجنة من ملائكة وغيرهم ، **فما هي لغة اهل الجنة يا ترى ؟ ..**

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وعن ابي هريرة بطرق مختلفة يعضد بعضها بعضا ، بهذا المعنى وبهذا اللفظ احيانا وقريبا منه ما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« احبوا العرب لثلاث لاني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام اهل الجنة في الجنة عربي » (12) .

وعلى هذا يكون آدم قد نطق بالعربية ومن ثم تعامل بها عند ما هبط الى الارض ولقنها لبنيه من بعده (والله اعلم) .

واستمرت هذه اللغة يتناقلها الابناء عن الآباء حتى عهد نوح .

واذا كان سام بن نوح هو اب العرب ، فمن باب اولى ان يكون نوح اب العرب ايضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويافث ، وما تخصيص سام بأبوة العرب الا بمعنى اثبات اكثر فروعه على اللسان العربي بعكس غالبية الفروع في حام ويافث التي تأثرت بالبيئات الجديدة وابتعدت عن موطن اللغة الام فتطورت كلمات وتكونت لهجات ثم تعمقت لغات على درب البشرية الطويل ويوضح هذا المعنى اكثر فاكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه : **« ليست العربية لاحدكم من ام ولا اب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق العربية فهو عربي » .**

ونخلص الى النظرية التالية :

العربية ام اللغات واصلها الاصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والحامية كان اصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والحاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور.

يقول الامام القلقشندي في موسوعته (صبح الاعشى) (13) عن اللغة العربية :

« اما فضلها فقد اخرج ابن ابي شيبة بسنده الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: (تعلموا اللحن والفرائض فانه من دينكم) . قال يزيد بن هارون (**اللحن هو اللغة**) . ولا خفاء انها امتن اللغات . واوضحها بيانا . واذلقها لسانا وامدها رواقا ، واعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لاشرف رسله وخاتم انبيائه وخيرته من خلقه وصفوته من بريته ، وجعلها لغة اهل سمائه ، وسكان جنته ، وانزل بها كتابه المبين الذي لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

« قال في صناعة الكتاب : **وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب** ، فاقبلت الامم اليها يتعلمونها »

واما ظاهرة اختلاف الالسن وتعدد اللغات التي مر ذكرهما آنفا ، فلحكمة يريدها الله ، والاختلاف بحد ذاته آية من آيات الله ، قال تعالى ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم . ان في ذلك لآيات للعالمين » (الروم 22) .

والاختلاف لا يكون الا من بعد الاتفاق ، والاتفاق كان على اللغة الام ، ومن ثم تفرعت وتم اختلاف الالسن .

« وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » (يونس 19) .

ولعل هذا الاختلاف انما كان لتعميق التنافس من اجل الاصلح والافضل والاخير ولعدم اجتماع الناس على الفساد ..

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، البقرة 251) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... » (الحج) .

الخاتمة :

واخيرا يجيب هذا البحث على ما ورد من تساؤلات في مطلعه ، وباليقين الثابت ان البشرية ترجع الى آدم (عليه السلام) وان آدم لم يكن له مقدمات في عالمي الجن والحيوان ، ولكنه كان على احسن صورة يتمتع بنفس الحواس والاجهزة التي يتمتع بها انسان اليوم ، ومنها النطق والبيان ، وقد اودع الله فيه من الاسرار ما يكفيه ليكون خليفته في ارضه ، كما ان الله سبحانه وتعالى قد علمه اسماء كل شيء مما سيقع تحت ناظريه ويديه ، فكان هذا العلم ذخيرة من الالفاظ والكلمات المدركة الجاهزة اخذ يطلقها على افرادها عند اللزوم ، وقد علمها ابناءه وذريته قبل ان ينتقل الى العالم الآخر ... وبغير هذا لا يقبل العقل ابدا ..

واما تعدد اللغات فهو ظاهرة طبيعية ومعقولة ترجع الى تفرع اللهجات عن اللغة الواحدة ، وبالتالي تعمقها على مر العصور ، وقد رافق ذلك استنباط كلمات جديدة وتركيب الفاظ حديثة نتيجة لمسميات مستحدثة .

واما عن اللغة الام فكان الجواب عنها قائما على اساس الظن اليقيني او بتعبير آخر على قوى الظن، **وذلك لقولي ان العربية هي ام اللغات واصلها الاصيل.**

ولقد بحث بعض علماء اللغات الحية في موضوع العربية وارجعوا كلمات كثيرة من اللغات الاخرى اليها من ذلك ما قاله (1) الاستاذ عبد الحق فاضل (نزيل المغرب العربي) :

1 ــ كلمة (ريف) في العربية معناها الارض القريبة من الماء ، وهذا يعني الساحل لان الساحل ايضا هو ريف البحر وشاطئه .

من كلمة ريف جاءت كلمة (Ripa) اللاتينية وهي بمعنى ساحل ــ ومنها Riviera الايطالية : ساحل ــ ومنها Rivière الفرنسية: وهي بمعنى ساحل قديما وحديثا بمعنى نهر ــ ومنها Rive الفرنسية : ساحل ــ ومنها River الانكليزية : بمعنى نهر .

2 ــ كلمة (صج) صوت اصطفاق الحديد منها (صنج) آلة الطرب النحاسية . ومنها (صنجة) كفة الميزان ــ ومنها (سنجة) حجر الميزان . وبنفس المعنى جاءت كلمة (سنكة) الفارسية وصيغت منها كلمة (سنك) اي الحجر ، ومن هذه كانت (Singan) السكسونية ــ و(Sing) الانكليزية وهي بمعنى يغني .

3 ــ كلمة (بلاط) تعني في العربية الارض المستوية الملساء . وهي ام الكلمات الآتية :

Platta اللاتينية بمعنى صحيفة .
Piazza الايطالية بمعنى ساحة .
Plate الفرنسية بمعنى طبق .
Plat الانكليزية بمعنى سطح .

وكلها تشترك بمعنى الاستواء والسطحية .

هذا نموذج مصغر مما قيل في (علم ارجاع اللغات الى اللغة الام) (الترسيس) . واما الوصول الى درجة اليقين المثبت في هذه الناحية بالذات فيحتاج الى التحقيق والتدقيق المستمرين .

---

1) عندما نقل احد البحاثين المحققين هذا النص الى كتاب له ، علق هنا بقوله : « هذا مجرد راي لهكسلي بوصفه ــ دارونيا ــ وهو طبعا يعز عليه ان يتراجع عن فروض دارون كلية امام ضغط الحقائق الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل ، وهو يتظاهر بانه ثابت على اصول النظرية .. والانسان يحتوي الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية » .
2) هنا يظهر تارجح هكسلي بين ضغط الحقائق وبين متقضيات الالحاد والمادية .
3) نحن ننقل نصوص هكسلي كما هي ــ بغض النظر عما نخالفه فيه في نشأة الانسان .
4) ص 123 ــ 124 من كتاب الخطر اليهودي ــ لمؤلفه محمد خليفة التونسي
5) ص 49 ــ 52 من كتاب التلمود ــ جمع عبد المنعم شميس .
6) طباعة دار المعارف بمصر (ذخائر العرب ــ 30)

7) الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية لمالكها ومديرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر .

8) الكلام الموجود داخل الاقواس فى الاسطر الاخيرة من هذا النص ليس من اصل النص بل هو تفسيري .

9) روى الحاكم عن جابر قال : قرا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال مالي اراكم سكوتا . الجن كانوا احسن منكم ردا . لما قرات عليهم هذه الآية : (فباي آلاء ربكما تكذبان قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) . (تفسير سورة الرحمن فى الجلالين)

10) كتاب شفاء العليل . لابن قيم الجوزية .

11) اخذت هذا الموجز بتصريف من تاريخ الطبري الجزء الاول من الصفحات الاولى حتى الصفحة 250 وعلى الاخص الصفحات 145 — 155 — 167 — 178 — 204 205 — 207 — 210 ؛ فليرجع اليها فى حالة الاستزادة .

12) كشف الخفاء — ج 1 ص 54 — للمحدث الشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي المتوفى سنة 1162 هـ .

13) الجزء الاول ص 148 .

14) بتصرف من العدد الخامس من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب (الرباط) . وقد جاء البحث تحت عنوان (علم الترسيس) .